

المدرسة العقلية الحديثة وعلاقتها بالقديم

إعداد الشيخ : ناصر بن عبد الكريم العقل
الحاضر بقسم العقيدة والذاهب المعاصرة

المدرسة العقلية الحديثة

وعلاقتها بالقديمية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه
وأتباعه إلى يوم الدين.. وبعد:

فقد تعرضت - في العدد الماضي من هذه المجلة - بإيجاز - للمدرسة العقلية القديمة في تاريخ الاسلام وأثرها السلبي على العقيدة والحياة الاسلامية حيث كانت بمثابة تجربة مرة للمسلمين لا يزالون يعانون من آثارها وأثار غيرها من الفرق الضالة، وكانت تلکم المدرسة ممثلة بالمعتزلة وبيّنت أنه بالرغم من أن تلك المدرسة حکم عليها الناس بالانقراض إلا أنها في الحقيقة بدأت أفكارها وعقائدها تنبعث من جديد ممثلة باتجاهات وآراء بعض المفكرين والباحثين المحدثين وبشكل سافر حتى توغلت في الثقافة والفكر الإسلامي الحديث وبدأت تثمر ثمارها النكدة في العقيدة والتصور والسلوك.

وقد سميت تلك الاتجاهات التي قامت على انقاض الفرق القديمة عموماً وعلى انقاض المدرسة العقلية الاعتزالية على وجه الخصوص - بالمدرسة العقلية الحديثة، كما أنني أرى أن المدرسة الحديثة إمتداد للقديمية في الأصول والمضمون، لا في الشكل والاسلوب لذلك أفردت في هذه المقالة فصلاً أصلاً في العلاقة بين المدرستين حسبما توصلت إليه، وعليه فقد قسمت هذا البحث إلى قسمين:

القسم الأول

التعريف بالمدرسة العقلية الحديثة:

للتعريف بالمدرسة العقلية الحديثة، يحسن أن أذكر القاري بمسألتي يتضح بهما المقصود بهذه المدرسة.

أولى هاتين المسألتين: (الغزو الفكري والعقائدي الغربي للعالم الاسلامي)
والثانية: (الفرق العقلية القديمة في تاريخ الاسلام).

أما الأولى: فانه من المعلوم أن الغرب الصليبي حين فشل في محاولات الانتقام العسكرية منذ الحروب الصليبية إلى بداية هذا القرن «الرابع عشر الهجري» من السيطرة المباشرة على العالم الاسلامي، اتجه إلى سياسة التأثير والتوجيه غير المباشر في العالم الاسلامي.. فبدأ التركيز على الغزو الفكري والعقائدي.. لتحطيم الكيان الاسلامي من الداخل، وبأيدي أبناء المسلمين أنفسهم.

وسخر لذلك كل ما لديه من قوى علمية وعملية، عبر الاستشراق والتبشير، والتوجيه الاعلامي، والنفوذ السياسي، وعبر تبني مجموعات من أبناء المسلمين... كالدارسين في الغرب أو في الجامعات التي تأسست على المناهج الغربية في بلاد المسلمين، وتمكين هذه المجموعات من مراكز التوجيه والتأثير والادارة.

ونتيجة لهذه الجهود.. نشأ اتجاه عام في شتى بلاد العالم الاسلامي إلى الاعجاب بالغرب وحضارته وتقدمه العلمي، ومن ثم الاستمداد منه، وعدم التمييز بين ما ينبغي أن يؤخذ وما يجب أن يترك، في حين أن الأمة الاسلامية بقيت (ولو عاطفياً على الأقل) مشدودة إلى الاسلام.. ومن هذا الاتجاه المزدوج المتناقض، برزت على مسرح الحياة الفكرية والعلمية مجموعة من العلماء والمفكرين تنادي بما يسمى بتجديد الأفكار والمفاهيم الاسلامية بما يسير العصر - عصر التنوير والمدنية والتقدم العلمي، وبما يتفق ومقررات العقل البشري، وبدعوى أن الغرب لم يتقدم علمياً حتى جدد في مفاهيم الدين حسب التطورات العقلية والسيادة العقلية على الحياة.

أما المسألة الثانية: فانه حين كانت هذه الطائفة مشدودة - بحكم ارتباط الأمة بالاسلام - إلى أن تصبغ هذا الاتجاه بالصبغة الاسلامية، أخذت تنبش من خلال التراث الاسلامي، مما يؤيدها من تراث الاسلام نفسه.. فوجدت أن الفرق العقلانية المنحرفة القديمة هي أقرب إليها.. بل أنها التزمت نفس الخط، وهو تحكيم العقل في الدين، فأخذت تعتمد على آراء هذه الفرق كالمعتزلة، واخوان الصفا وبعض الفلاسفة.

ومن هذا الاتجاه العقلاني المنحرف برز ما يمكن أن نسميه (المدرسة العقلية الحديثة) في هذا البحث.

وعليه.. فالمدرسة العقلية الحديثة هي:-

✳ تلك الاتجاهات العقلانية التي ظهرت في القرنين الأخيرين، التي تغالي في تحكيم العقل البشري وتقديمه على الدين، وتعطي العقل أحكامه اعتبار فوق اعتبار نصوص الوحي الثابتة عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

✳ والتي تذهب إلى تفسير الاسلام - في عقيدته وأصوله - تفسيراً عقلانياً مادياً، دون اعتبار لدلالات اللغة، وأصول الدين، ومفاهيم النصوص، وعمل المسلمين وجامعهم.

✳ والتي تذهب إلى تفسير الوحي والدين، والنبوات، والغيب^(١)، والمعجزات والقدر، على مقتضى المفاهيم العقلانية البشرية المحدودة، والكشوفات العلمية المحسوسة والنظريات الغربية المادية.

✳ والتي تدعو إلى التجديد والنظر في الاسلام - حسب مقتضيات العصر الحديث - عقائدياً، وفكرياً، وتشريعياً، وتاريخياً، ليساير الفكر الغربي والحياة الغربية المتقدمة، والمتمدنة، واخضاعه للسيادة العقلانية المادية كما فعل الغرب بالكنيسة ودينها (المُحرّف).

ومنها تلك الاتجاهات التي دعت إلى فصل الدين عن الحياة، وعن الدولة وعن العلم، وعملت - ولاتزال تعمل - على تحقيق هذا الانفصام في حياتها وحياة الأمة العملية والعلمية.. وهي مع ذلك كله.. تدعي الاسلام، وتؤمن بالله ورسوله.. أما عن تسميتها

(١) ومنه الملائكة والجن والشياطين، والجنة، والنار وغيرها.

مدرسة، فلأنه يجمعها الوصف والإطار العام لهذا المصطلح «مدرسة» فهي مدرسة من حيث:-

١ - وحدة أصولها.

٢ - وحدة منهجها.

٣ - وحدة أهدافها.

كل ذلك على وجه العموم، إذ لا يعني هذا أنها تمثل وحدة متكاملة ومتشابهة، بكل خصائصها وجزئياتها بالمعنى الحرفي الدقيق.

فهي كالمدرسة بالمفهوم التعليمي الشائع، التي تحوي مجموعات من الطلبة، حيث لا يلزم أن كل من فيها من الطلبة على مستوى واحد، وهدف واحد، واتجاه واحد، إنما يجمعهم المنهج العام والهدف العام للمدرسة.. ولا يمنع هذا أن يكون من بين أفرادها المنحرف الشديد الانحراف، والمعتدل، وبينهما طرائق قdda، كما أنه من الممكن أن تحوي المدرسة العقلية، مجموعات من الاتجاهات المذهبية والحزبية.

أي أنها حوت مجموعات من القوميين، والحزبيين، والاشتراكيين، والرأسماليين والانتهازيين، والنفعيين، وسائر المنحرفين أفرادا وجماعات.

بل ربما حوت بعضا من «المشائخ» من علماء الشريعة، وأساتذة الجامعات.

ومع ذلك كله يجمعها الوصف العام - كما قلت - للمدرسة العقلية، وهو: أنها تعطي للعقل وأحكامه حق النظر في العقيدة وأصول الدين..(١) كليا، أو جزئيا حسب اتجاهات أفرادها. وهذا هو وجه تسميتها بالمدرسة العقلية.

(٢) أعني بالدين عند الإطلاق : الاسلام ، كما هو عند سائر المسلمين، اتباعا وامتنالا لقوله تعالى: (ان الدين عند الله الاسلام).

وأقصد بالحديث، التي ظهرت في القرنين الأخيرين على وجه التقريب أي بعد اتجاه المسلمين نحو الغرب، وبعد وجود التأثير الغربي على العالم الإسلامي عبر الاحتلال والتبشير والغزو الفكري -

القسم الثاني

العلاقة بين المدرستين العقليتين - القديمة والحديثة

لست مبالغاً حيناً أقول: بأن المدرسة العقلية الحديثة تلتقي وتتفق في كثير من أصولها وأرائها مع الاتجاهات العقلية القديمة، مع بعض الفروق الشكلية الطفيفة، فالتأمل لهذه الاتجاهات، قديمها وحديثها، يجزم بأنها تشكل مجموعة واحدة، متشابهة ومتشابهة، وأن الحديث «امتداد طبيعي للقديمة».

وهذا التشابه نلمسه في جوانب عديدة في المدرستين، في أصولها ومناهجها، وفي وسائلها وغاياتها، وأوضح جوانب التشابه يتجلى في اشادة رواد العقلية الحديثة بأساتذتهم رواد العقلية القديمة.

كما أن اهتمامات أكثر رواد العقلية الحديثة منصبة على احياء الفرق القديمة، وتمجيدها، واقتفاء آثارها، والبكاء على أطلالها.

أما وحدة الأصول والأهداف فتتمثل جلية فيما يلي:

- ١ - اتفاق المدرستين على اكبار العقل، وتقديمه على النص فيما لا مجال للرأي فيه، واخضاع الثاني للأول، وما يتبع ذلك من تأويل النصوص وتحريفها أو ردها، وعدم التسليم لها، والمبالغة في رفع شعار الحرية الفكرية، وإن كان على حساب العقيدة الالهية.

٢ - اتفاقها في التبعية للمذاهب والفلسفات الأجنبية عن الاسلام، فكما أن أصحاب الفرق القديمة تتلمذوا على اليهود والنصارى واليونان والمجوس والوثنيين، فكذلك العقلانيون المحدثون، تتلمذوا على المستشرقين، والغربيين ورثة الفكر اليهودي والنصراني والوثني واليوناني.

٣ - استباحة الخوض في أمور الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، وليس للعقل قدرة على تصورهما فضلاً عن الحكم عليهما، وعدم احترام ما ورد بطريق الوحي في القرآن والسنة الصحيحة، في بعض المخلوقات الغيبية، انكاراً أو تكذيباً، أو تهكماً أو تشكيكاً، ومعارضة لما جاء في ذلك، ومن أخطر الأمور الغيبية التي استباحتها

لأخرة، ونحو هذه الأمور التي يستحيل للعقل ادراك كنهها وحقائقها ولا تخضع للتصور والاستقراء العقلي، ولا للتجارب الحسية والعلمية.

٤ - الاستهانة بأحكام الله وشرعه، وفي الحلال والحرام، والأخلاق والتشريعات والعبادات، وعدم التسليم لله فيها، وذلك بالمعارضة والتبديل والتحريف، والزيادة والنقص، والاستهزاء بأحكام الله، والتشكيك في دينه.

٥ - الجرأة على إثارة الشبهات والآراء الشاذة في العقيدة وأصول الاسلام وأحياء النحل، والمذاهب المتطرفة، بين المسلمين وتمجيدها، والدعاية لها باسم التسامح الديني، وحرية الفكر والاعتقاد، ولقد برزت المرجنة والجهمية والمعتزلة والرافضة قديماً من هذا المنطلق، ثم جاءت العقلية الحديثة أيضاً تحيي من جديد تلك المذاهب والاتجاهات من هذا المنطلق، منطلق حرية الفكر والاعتقاد! وهذه هي شبهة الشيطان.. بل زادت العقلية الحديثة في تهورها، حيث أخذ بعض روادها بالدعوة إلى أحياء جميع الفرق، لغرض التوازن في بناء الفكر الجديد(١)..

(٣) راجع في سبيل السنة الإسلامية للمفكر التونسي (محبوب بن ميلاد) ص ٢٤، ٢٥.

٦ - كذلك يتفق الجميع - أصحاب الفرق القديمة والاتجاهات العقلية الحديثة - على مقت أهل السنة والتهوين من شأنهم، ورميهم بالتعصب وضيق التفكير والجهل، بالرغم من اعترافهم - جميعا - بأن أهل السنة هم أهل القرآن والحديث، بل ان العقلانيين يعيبنهم بهذا - ونعم الوصف - وصفهم بالنصيين وأهل النقل(٤).. فهذه الأوصاف أطلقت على أهل السنة من قبل العقلانيين قديما، وحديثا، بل وصل ببعضهم التطرف إلى اطلاق السلفيين على أهل السنة باعتباره مسببة(٥).. ووصفا معيبا.

٧ - الدعوة إلى تفسير القرآن والسنة، وتأويلها تأويلا عقلانيا جديدا، حسب كل عصر دون اعتبار تأويل السلف والصحابة، ودون التقيد بالمصطلحات الشرعية والقواعد الأصولية، ودلالات اللغة للقرآن والسنة، والنزوع إلى الرموز والمجازات والتفسيرات الفلسفية، والصوفية(٦).. والمادية، وهذا ما درج عليه فعلا الصوفية والباطنية والشيعة والمعتزلة، ثم أصحاب العقلية الحديثة في هذا العصر، كما أن كلا المدرستين تنزعان إلى التجديد والتغيير في أصول العقيدة، وأصول التشريع الثابتة، دون اعتبار النصوص الواردة عن الله ورسوله.

٨ - اعتبار هزيمة الفرق المنحرفة في القديم والجديد، وانتصار أهل السنة، نكسة تاريخية وضررا بالاسلام والمسلمين، وعاملا من عوامل التخلف والجمود(٧)..

(٤) راجع كتاب (هذا هو الاسلام) لفاروق الدموجي ص ٣٦، ٦٠، وكتاب (الاسلام وتحديات العصر) للدكتور حسن صعب ص ٩٣.

(٥) المصدر السابق (هذا هو الاسلام) ص ٢٢ إلى ٥٦.

(٦) انظر شبهات التغريب - لأنور الجندي ص ٣٦، وراجع كتابي (الله). (والسر الأعظم). لمصطفى محمود.

(٧) شبهات التغريب أيضا ص ٣٤، ٣٦.

وراجع ثورة الاسلام لأبي شادي ص ٤٨، ٤٩، وهذا هو الاسلام - للدموجي ص ٣٩، ٥٢، ٦١.

* لعل المؤلف قد نسي أن التبليل والفلسفة والمذاهب لم تنتشر بهذا المفهوم الذي عناه إلا بعد ظهور المعتزلة وأن لهم اليد الطولي في البلبلة والفلسفة والمذهبية؛ وليراجع التاريخ - ان شاء - هو وأساتذته.

* يبدو لهم أن الديانة الاسلامية قبل المعتزلة لا يهضمها الوجدان ولا يستسيغها الذوق؟! هكذا يزعمون.

وأكثر ما تتبين العلاقة بين المدرستين، في تمجيد كُتّاب العقلية الحديثة للفرق المنحرفة القديمة وأسفهم عليها، والعمل على إحيائها، وارتباطهم الوثيق بترائها، وهذا ما سائبته هذه النصوص للتأكيد على أن العلاقة بين المدرستين: الحديثة والقديمة، ليست علاقة تعاطف وتقارب فقط، بل انها علاقة تلمذة وانماء لا لفرقة فحسب.. بل لأكثر الفرق الغابرة، حتى تلك الفرق الشاذة، كالقرامطة والحلولية، واخوان الصفا.. أما الفرق التي خصت بالتأييد الفائق من أكثر رواد العقلية الحديثة، فهي المعتزلة، ولا غرو، فهي الفرق التي رفعت لواء القداسة العقلية بجدارة، واستوعبت كثيرا من آراء الفلاسفة وأهل الكلام من أعداء الرسل والوحي قبل الاسلام وبعده! ثم انها خلفت تراثا عقليا ضخما متكاملا تغلغل في صميم التراث الاسلامي، وشمل التفسير والأصول، والعقائد والحديث، وجميع جوانب الفكر الاسلامي، فهو يشكل بمجموعه رصيذا عظيما للعقلية الحديثة، ثم ان المعتزلة من أقوى الفرق المنحرفة حماسا للاسلام ودفاعا عنه، مما جعل البعض من رواد العقلية الحديثة يميل إليهم ميلا عاطفيا أيضاً.

كما أن من أهم العوامل التي ربطت بعض الكتاب والمفكرين المسلمين المحدثين بالمعتزلة وغيرهم من الفرق.. الجهل بالعقيدة الاسلامية.

وهذه بعض النصوص التي تبين قوة العلاقة بين المدرستين العقليتين القديمة والحديثة.

قال فاروق الدملوجي في كتابه هذا هو الاسلام:

«والحقيقة أن رجال المعتزلة باستثناء المغالين منهم والمفرطين والمغرضين والضالين، كانوا أحرارا في آرائهم وفي تأويلاتهم، فلم يقفوا عند حد، ولم يردعهم قيد، وحكموا العقل في جميع القضايا، وأولوا النقولات كافة حسبها يقتضيه الزمن والحال فقالوا كلمتهم المشهورة، إذا تعارض العقل والنقل وجب التأويل لما يقتضيه العقل، وكان جل مقصدهم تخليص الدين الاسلامي من التبليل والفلسفة والمذاهب المتضاربة والمنتشرة في العالم الاسلامي كله * . وجعل الديانة الاسلامية أكثر صفاء ومرونة، وأشد مراسا وحجة

للتوافق مع المقولات في كل عصر وزمان، ويهضمها الوجدان البشري، ويستسيغها الذوق* في كل وقت وأن (٨).

ويقول: «وكان الأشاعرة ومن تمذهب بمذهبهم من أهل السنة والجماعة يلعنون الفلاسفة والمعتزلة، وأهل الفكر ومن يذهب بمذهبهم، ويحرقون كتبهم تقربا للجمهور الجاهل وزلفى إلى الله.. وبهذه الطريقة النكرة انطفاأت الآراء الحرة من رؤوس المفكرين، فكانت السبب في سقوط العالم الاسلامى من شاق عزه ولم يزل منحدرًا لا يرتقى» (٩).

«وشرع المعتزلة لأول مرة بالعالم الاسلامي في تحكيم العقل في جميع المسائل المفروضة عليهم فأولوا نصوص القرآن تبعاً لما يقتضيه العقل والمنطق لا كما يريدوهم الاوليون والسلفيون، أصحاب المدرسة القديمة وهم أهل السنة والجماعة والمناظرة والمتصوفة من الجمود والوقوف على حد اللفظ والنص وظاهر الشرع دون زيادة، أو نقصان، أو تأويل أو تفسير» (١٠) ..

«لو كان قد انتشر الاعتزال في البلاد الاسلامية من أقصاها إلى أقصاها لما حصلت هذه النكبات، ولو لم يحصل الارتجاع والانتكاس والجمود على المنقولات لكان العالم الاسلامي غير ما هو عليه اليوم»(١١) ..

ويقول محبوب بن ميلاد في كتابه «في سبيل السنة الإسلامية»:

«ويكفي الاعتزال فخرا أن ضم في صفوفه شخصيات بارزة وعقولا جبارة كواصل ابن عطاء، وأبي الهذيل العلاف، والنظام، وأبي على الأسواري، وأبي يعقوب الشحام،

(۸) هذا هو الاسلام - فاروق الدملوجي ص ۴۹.

(٩) ص ٦١ المصدر السابق.

(١٠) ص ٣٩ المصدر السابق. وتأمل قوله (والحنابلة والمتصوفة). لتدرك جهل هذه الفئة بالعقيدة وبديهيات الأمور.

(١١) ص ٥٣ المصدر السابق.

وبشر بن المعتز، والجاحظ، وأبي علي الجبائي شيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي موسى المردار، وثمامة بن الأشرس، والجعفرين، وأبي الحسين الخياط، وابن القاسم البلخي، وابن فارس، والزنجشري وأمثالهم العديدين فقد كان المعتزلة المحرك القوي، الذي أطعم التفسير الإسلامي وغذاه وبعث فيه حيوية رائعة، وأكسبه جرأة سطرت صفحات هي من أنفس صفحات التفكير الإسلامي وأجرت ينابيع فكرية ماؤها من أصفى المياه وأعذبها» (١٢). وهكذا يلاحظ القاري كيف يفتخر هؤلاء بالاعتزال ورجالهم مع أن أكثر الذين ذكر أسماءهم من أئمة الضلالة.

كما أن المؤلف (محبوب) يرى أحياء جميع الفرق معتزلة وشيعة وخوارج ومرجئة، وأن لكل منها أن يزعم أنه سني (١٣) ..

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي منها ومعتزلاً باخوان الصفا:

«فإن أولئك الفضلاء الحكماء الذين ازدانت بهم المائة الرابعة من الهجرة كما ازدان بهم الإسلام، والذين اجتمعوا على القدس والطهارة على حد تعبير أبي حيان التوحيدي تفتقت أذهانهم على روحانية الإسلام ورجاحته الحقيقيين فصاحوا: إن الشريعة الإسلامية قد دنست بالجهالة، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (١٤) .. واستمر يكيل المدح لهم ثم قال: «من العيب الفاضح بعد مرور هذه القرون الطويلة أن ننسى قدوتهم المثالية، والصورة النقية الرائعة التي رسموها للإسلام الصحيح من ناحيتي الفكر والسلوك. إن المسلم الحقيقي هو من آمن بالوصايا الأخلاقية السابقة الذكر، وقدمها وطبقها دون تذبذب» (١٥) فإسلام إخوان الصفا وإسلام المعتزلة هو الإسلام الصحيح عند هؤلاء!

(١٢) ص ٩٣ - ٩٤ في سبيل السنة الإسلامية - محبوب بن ميلاد. د. ١٣١٥.

(١٣) راجع ص ٢٤ - ٢٥ المصدر السابق د. ١٣١٥.

(١٤) ص ٤٨ - ٤٩ ثورة الإسلام، أحمد زكي أبو شادي.

(١٥) المصدر السابق ص ٤٩.

ويقول زهدي حسن جار الله وكتابه «المعتزلة»:

«واجب على كتاب العرب ورجال الفكر فيهم أن يوجهوا إلى المعتزلة جزءا كبيرا من عنايتهم وجهودهم، ذلك بأن كتاب السنة الأقدمين بسبب كراهيتهم للاعتزال تحاملوا على المعتزلة ولم يذكروهم إلا مع التقييع والتشنيع فاعطونا عنهم فكرة سيئة وصورة مشوهة.. كما أن الكتاب المعاصرين لم يلتفتوا إليهم ولم يأبهوا لهم، فبقي المعتزلة محرومين من التقدير مفتقرين إلى من يظهر حقيقتهم، ويعطيهم المكانة اللائقة بهم في التاريخ.

يضاف إلى هذا أن النهضة العربية الحديثة شبيهة في ظروفها وأحوالها بالهضة العربية القديمة التي تلت الفتوح الإسلامية والتي لعب فيها المعتزلة دورا خطيرا.. وإلا فلا بد في نهضتنا هذه من ظهور روح الاعتزال أو لا بد من احياء تلك الروح.. ولهذا كان درس المعتزلة ضروريا لنا وحيويا» (١٦).

ولم يقتصر كتاب العقلية الحديثة على الفرق المشهورة، فقد نبشوا عن حياة أصحاب الفسق والمجون واللغو والعبث، وأصحاب الفتك بالأعراض، كما فعل الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» (١٧)، وأحمد أمين في «فجر الإسلام» (١٨) وغيرها. ليصوروا المجتمع الإسلامي في القرون الفاضلة مجتمعا ماجنا لاهيا عابثا، ليبلفوا بذلك غاية يسعون إليها.

أما الصوفية المنحرفة فهي عمليا لم تنقطع في صفوف الجهلة والدراويش والقبوريين وبعض المشايخ: أما العقلانيين فصلتهم بها حديثا وتتجلى في مؤلفات

(١٦) ص ك من المقدمة كتاب المعتزلة - زهدي حسن جار الله.

(١٧) راجع حديثه الأربعاء (طبعة ١٩٦٥) المجلد الأول ص ٢٦٠، ٢٨٣، ٣٠٥ والمجلد الثاني ص ٤١ - ٥١، ٨٣، ١٤٩، ١٦٠، ١٨٨ على سبيل المثال لا الحصر.

(١٨) انظر فجر الإسلام ص ١٧٦ - ١٨٠.

مصطفى محمود الأخيرة.. (١٩) وفلسفة محمد اقبال (٢٠). وكتب عبدالحليم محمود (٢١). ونحوهم.

والمتتبع لسير الاتجاهات العقلية الحديثة، يدرك بوضوح أنها تتبنى احياء أفكار وأراء الفرق العقلية القديمة، وتفعل ذلك في هذا الوقت الحرج من حياة الأمة الاسلامية.. فقد أخذت أفكار تلك الفرق المنحرفة القديمة، تنبعث من جديد، من خلال مناهج التعليم والتربية، والدراسات الأكاديمية، والإعلام، والتأليف، ونتيجة لهذه التأثيرات العقلانية، نشأت أجيال - من أبناء المسلمين - لا تعرف من الاسلام إلا اسمه، ولا من تاريخها إلا رسمه، فضلا عن العقيدة الاسلامية، حتى صارت هذه الأجيال مهياة لتقبل الشعورية، والمذاهب الهدامة، والانتفاءات العقلية الضالة من جديد، لشعورها بالفراغ العقائدي، الذي تعانيه من جراء هذه التأثيرات العقلانية.

ومع ذلك، فانه من البديهي أن الباحث في تفصيلات الخصائص والمميزات لكلا المدرستين، سيجد هناك بعض الفروق والسمات، التي تكون لأحدهما دون الأخرى ويتضح ذلك عند المقارنة، ومن أهم هذه الفروق والسمات ما يلي:-

أولاً: الفرق العقلية القديمة، ألصق بالاسلام وأقرب إلى حقيقته، والإخلاص له (ان صح التعبير) بسبب معاشتها للمجتمع الاسلامي، في القرون الفاضلة التي هيمن فيها الاسلام، نظاما للحياة، ودينا للدولة، ورائد للحضارة، والدولة الاسلامية سيدة العالم، فكان أولئك العقلانيون، أكثر مجاملة وانصهارا في المسلمين، وكانت تلك الفرق بمثابة الشذوذ مقابل التيار الاسلامي العام.

(١٩) راجع كتاب السر الأعظم حيث أشاد بأقطاب الصوفية الغالين في التصوف مثل ، ابن عربي، وابن الفارض، وأبي العزائم.

(٢٠) راجع كتابه تحديد الفكر الديني خاصة، الفصلين الأول والثاني من ص ٥ إلى ٧٥ ترجمة العقاد.. الطبعة الثانية ١٩٦٨.

(٢١) راجع كتبه : أ بومدين الغوث - التصوف ابن سينا - المدرسة الشاذلية الحديثة والسيد أحمد البدوي - وغيرها

بينما نجد الأمر انعكس تماما في العصور الحديثة، فأصبحت قيادة البشرية قيادة وثنية وملحدة تلك زمام الحضارة والتقدم، والمسلمون هم المستضعفون، وقد وُضِعَ الاسلام في قفص الاتهام، دون محامين، فهو يحاكم محاكمة غير عادلة، مما جعل العقلية الحديثة تكون أبعد عن الاسلام وأجهل بأصوله وأحكامه، وتستند في وجودها وهيمنتها إلى القوة المادية للحضارة الغربية، الوثنية القائمة، فأصبحت وكأنها الأصل، والفكر الاسلامي الأصل هو الشاذ، الذي يُحَارَبُ وَيُضْطَهَدُ وَيُطَارَدُ أصحابه، في بلاد الاسلام ومعاقله!

ثانيا: العقلية القديمة انكشفت واتضح عوارها، حتى ترسبت واضمحلت، وغربلها التاريخ، وأصبحت تدرس ضمن سلبيات وأخطاء الأمة الاسلامية، وعرفت بأصولها ومواقفها السلبية في المسلمين، أما العقلية الحديثة فهي المهيمنة، وتكاد تجعل أهل السنة في موقف المتهم، وتريد أن تسحب هذا الاتهام على الاسلام نفسه الآن، بل وتحاكمه (٢٢)، ولم تدع لحملة الاسلام الصادقين، فرصة المقاومة والدفاع والبلاغ، اللهم إلا ما حدث أخيرا، من الانتفاضات الاسلامية الأخيرة، والتي لم تتمكن من الوقوف المكافي بعد، للضربات العنيفة، التي يكيلها لها ادعياء الحرية الفكرية، والثقافية، والسياسية، في العالم الاسلامي.

والعقلية الحديثة وان انكشفت بعض الشيء لكنها لم تحأسب بعد، وموعدهم الصبح - ان شاء الله - أليس الصبح يقرب ؟ لأن ذلك رهين بيقظة المسلمين، وقد بدأت بوادرها بحمد الله في كل اصقاع الأرض.

ثالثا: العقلية الحديثة استمدت تنظيمها ونشاطاتها من روافد جاهلية حديثة، لم تتيسر للفرق والاتجاهات العقلية القديمة، بسبب التفوق العلمي الحديث للغرب الجاهلي، هذه الروافد تتمثل في قوى منظمة، لا يستهان بها هي التبشير والاستعمار، والاستشراق، ومراكز القوى اليهودية العالمية، كالمحافل الماسونية، ومؤسسات الاعلام.

(٢٢) أقصد أن ذلك هو الواقع عمليا، لا عقائديا، وهذه حالة عارضة، لا بد أن تزول. تحقيقا لوعد الله تعالى بنصر دينه، وظهور الحق وأهله، فإن الباطل زهوق وأن هيمن زبده حين يهيج بعض الوقت.

زد على هذا، الأوثان الحديثة التي برزت وتخفضت عنها حضارة السوء - الحضارة الغربية المادية - مثل شعارات الحرية المزعومة والتجرد، والبحث العلمي، والشك قبل اليقين، واخضاع كل شيء للتجربة والمشاهدة، حتى قضايا الغيب! وما تبع ذلك، من نظريات واتجاهات، قلبت المفاهيم والأفكار والأخلاق هناك.

كل هذه الأمور كان لها الأثر الأكبر في هذا الغرور، والتعالي والتحكم، الذي تمارسه العقلية الحديثة، والتي تركزت في مراكز التوجيه الفكري، والتربوي، والسياسي والاعلامي، أو قل: في توجيه الحياة في العالم الاسلامي، فأخذت تهدم أصول الاسلام في قلوب المسلمين وعقولهم، وتطارد المخلصين بوحشية دونها وحشية أساتذتهم الغربيين المستعمرين، أيام احتلالهم العسكري لبلاد المسلمين، وتهون عندها قسوة أسلافهم المعتزلة على أهل السنة في عهد ابن أبي داود، وفوضى القرامطة والفاطميّين، والشيعة.

رابعاً: العقلية الحديثة تفوق القديمة، في شعاراتها وإمكاناتها ووسائلها، فهي تحمل شعارات براقّة، وخادعة غير الأسماء القديمة التي تشوهت وأضحت مسبة.

فالشعارات الجديدة جذابة: كالحرية الفكرية والثقافية، والتجديد والتطوير والتقدمية والتنوير، والمعاصرة والمسايرة، والبعث والثورة والتحرير والوطنية والقومية، والاشتراكية والعدالة، والاخاء، والمساواة والعلمية، والتسامح الديني... الخ

بينما القديمة استقرت على أسماء الاعتزال، والخروج، والرفض والقرمطة، فلم تحظ بتلك الشعارات والأسماء الخادعة.

خامساً: أما رواد العقلية الحديثة فهم يمثلون في الغالب الأساتذة الموجهين في أكثر العلوم والمعارف في التربية، والأدب، والتاريخ، والاقتصاد، والعلوم التطبيقية والانسانية(٢٣)...

(٢٣) وأخيراً انبرى لهم مفكرون مسلمون كتبوا في بعض هذه الجوانب وأثبتوا جدارتهم في إبراز وتأصيل هذه العلوم اسلامياً. ولكن لا تزال الحياة في العالم الاسلامي تدور في فلك أولئك.

وهذا بخلاف واقع الأمة الإسلامية، في عصورها الماضية، حيث كانت الريادة والقيادة في الغالب لأهل السنة، فهم قادة التوجيه والعلم والجهاد، أما رواد العقلية القديمة فقد عُرفوا بالشُعْبِ والفتن والمراء والجدل الفارغ، دون أن تكون لهم الهيمنة الكاملة إلا فترات وفرص قليلة، كما حدث أن المعتزلة تمكنت في الدولة العباسية لفترة قصيرة، ثم الفاطمية حكمت في مصر حتى جاء صلاح الدين وأحيا السنة والجهاد، ثم القرامطة تسلطت في الجزيرة العربية بعض الوقت.

وليس غريبا، ولا عجيبا، أن تكون الفترات التي تَمَكَّنَتْ فيها هذه الاتجاهات القديمة والحديثة، من أنكد وأقسى الفترات على الاسلام، والمسلمين في تاريخهم الطويل، ومن شاء فليستعرض في ذهنه الواقع التاريخي فسيجد دون عناء أنه هكذا «معكوسا»:

النصيريون(*)، البعثيون، العلمانيون، الاشتراكيون، الثوريون، الأحرار (الضباط الأحرار والناصريون) الماركسيون، القوميون، ثم القرامطة، الفاطميون، المعتزلة، الخوارج، السبثيون [بعض الثوار على عثمان] في القديم - وكلهم مجموعة عصابات لم يرقبوا في المسلمين إلا ولا ذمة.

سادسا وأخيرا: من أهم ما يميز العقلية الحديثة عن القديمة.. كون الحديثة أكثر تماسكا وتكافلا من القديمة.. فالفرق القديمة، غالبا ما يلعن ويكفر بعضها بعضا، حتى داخل الفرقة الواحدة، كما فعلت الفرق العشرين المعتزلة(٢٤).

أما الحديثة فقد استفادت من التجربة، وجمعتها المصالح والغايات المشتركة، كما أن التأثير الأجنبي، هو الذي يسيرها جميعا نحو الهدف الواحد، وإن تباينت الوسائل

(*) وهم حكام سوريا اليوم.

(٢٤) راجع الفرق بين الفرق للبغدادي - ص ٩٣ .

والمنطلقات، وإن كانت تحمل من داخلها جميع عناصر الفرق والتباين، لكنها أدركت من خلال التجارب الماضية، أن المسلمين المتمسكين بالحق سيقفون لها بالمرصاد، فالتقت هذه الاتجاهات جميعها في ظل الملتجأ الواحد (الغرب) «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» ٣٠ الأنفال.

هذا.. وستلي - باذن الله - حلقات قادمة عن تفصيل آراء المدرسة العقلية الحديثة في مسائل العقيدة وأصول الدين، ومناقشتها، وصلى الله على النبي الأمين محمد وآله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

